الشيخ عمرو الشرقاوي

اسم الدرس : {أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم}
تصنيف الدرس : مقاطع ومحاضرات

{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ }

السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على إمام الأتقياء وسيد المرسلين، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد..

فقد قال الله ﷻ في سورة العنكبوت: {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[العنكبوت:47-51]

هذا الكتاب العظيم حَمِد الله ﷻ نفسه على إنزاله؛ فقال الله ﷻ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}[الكهف:1-4]

وقال الله ﷻ: {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[الإسراء:9]

الله ﷻ في هذه الآيات يقول للنبي ﷺ: {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}[العنكبوت:47] أي أنزلنا هذا القرآن بديعًا في فصاحته، وشريفًا في معانيه، وعذبًا في تراكيبه؛ وهذا القرآن هو سبب رفعتك، وهو سبب علو شأنك، وهو سبب رفيع منزلتك، ولذلك يقول الله ﷻ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}[الزخرف:44].

ماذا تعني {لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}؟

يعني أنه يذكّرك ويذكّر قومك، وأنت تذكر الله به، وقومك يذكرون الله به، وهو رفعة لك في الدنيا والآخرة.

فهذا القرآن جمع هذه الأوصاف الثلاثة في قوله ﷻ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}:

- أولًا: هذا القرآن يُذكّر بالله ﷻ.
- وهذا القرآن يُذكّر الله ﷻ به.
- وهذا القرآن يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة.

ولذلك لما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه جاءه واليه على مكة:

- فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من تركت على حرم الله؟" أي من الذي صار أميرًا على مكة؟
- فقال له: "يا أمير المؤمنين ابن أبزى".
- فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وما ابن أبزى؟" أي من ابن أبزى هذا؟
- فقال: "مولى من موالينا" أي عبد رقيق.
- فقال: تركت على حرم الله مولى من مواليك؟!
- فقال: "يا أمير المؤمنين إنه حافظ لكتاب الله عالم بالفرائض" يحفظ القرآن وهو أيضًا عالم بالفرائض.
- فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: "أشهدُ أني سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)[1]".

ونحن حتى في حياتنا من الممكن أن نرى هذا كثيرًا، قد تجد أحدًا بمستوى الناس وبنظراتهم وضيعًا، لكن يرفعه الله بالقرآن، لأن الأمر ليس في الدنيا يا إخواني! الأمر في الآخرة.

كما قال الله ﷻ: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}[الإسراء:21] وأكبر ماذا؟ تفضيلًا. فالموضوع ليس في الدنيا، أي ليس مقتصرًا على الدنيا، إنما الأمر الحقيقي.. التفضيل الحقيقي في الآخرة.

[1] [عن عمر بن الخطاب:] أَنَّ نافِعَ بنَ عبدِ الحارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بعُسْفانَ، وَكانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ على مَكَّةَ، فقالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أَهْلِ الوادِي، فَقالَ: ابْنَ أَبْزى، قالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزى؟ قالَ: مَوْلًى مِن مَوالِينا، قالَ: فاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلًى؟! قالَ: إنَّه قارِئٌ لِكِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّه عالِمٌ بالفَرائِضِ، قالَ عُمَرُ: أَما إنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قدْ قالَ: إنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بهذا الكِتابِ أَقْوامًا، وَيَضَعُ به آخَرِينَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٨١٧ • [صحيح]

لكن من الممكن أن نرى في الدنيا بعض النظرات أن فلانًا مفضـــل على فلان مثلًا، أن فلانًا مثلًا معه شـهادة كذا، وفلان معه شـهادة كذا، سـبحان الله قد يكون هذا الذي يحمل الشـهادات الكبرى تجده يصـلي وراء هذا الذي يحمل شـهادة ليسـت بكبيرة، ما الذي رفع هذا؟ الذي رفع هذا هو حمله للقرآن، (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين).

وهذه الكفاية لما طلب هؤلاء الجاحدين آية ظاهرة لأن ربنا ﷻ يقول: {وقالوا} أي المشـــركون، {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ}[2] ماذا يريدون؟ آية محسوسة، آية مشهودة.

فأرشـــدهم الله ﷻ إلى الآية حق الآية، وإلى الموعظة حق الموعظة، وإلى المعجزة الكبرى؛ قال الله ﷻ: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ} أولم يكفِ هؤلاء الجاهلين {أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ}[العنكبوت:51] أولم يكفهم أن هذا القرآن نزل فيهم، إذًا القرآن فيه الكفاية من كل شيء.

ولذلك ابن القيم رحمه الله يقول: "ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله"، وهو يتحدث في زاد الميعاد عن الطب، شفاء القلوب وشفاء الأبدان، فهو يذكر أن هذا القرآن فصّل الله ﷻ فيه ذكر القلوب وأمراضها وعللها وأدوائها، وأن الله ﷻ عالج هذه الأدواء .. ثم قال: "فمن لم يشـفه القرآن فلا شـفاه الله، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله" الذي لا يكتفي بهذا القرآن ما الذي يكفيه؟

هذا القرآن هو كلام الله ﷻ! هذا القرآن هو الذي يكشـف للإنسـان الدنيا والآخرة، هو الذي يكشـف للإنسان كل شيء.

ولذلك حكى الله ﷻ عن الصـادقين.. قال الله ﷻ في شـأنهم: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا} يحكي عن حال المؤمنين حين تتنزل عليهم آيات الكتاب، قال الله ﷻ: { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}[الزمر:23].

لذلك العرب عندما أتاهم هذا القرآن –وكان العرب قد برعوا في الكلام–، تخيلوا أن العرب كان لديهم مجالس أســـواق كاملة يبيعون فيها ماذا؟ يبيعون فيها الكلام، كان أحدهم يمكث طيلة الســـنة ليؤلف قصـيدة، القصـائد المشـهورة بالقصـائد الحولية، يؤلف قصـيدة ثم يدفعها إلى غيره ينقبها، ويزيد فيها، ويضـيف عليها، وينقص منها، ثم يعرضـها على الشـعراء الذين هم المحكمين الكبار، فُحول الشـعراء في

[2] 1. وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿يونس: ٢٠﴾
2. وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿الرعد: ٧﴾
3. وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿الرعد: ٢٧﴾

الجاهلية، فكانوا يقبلون هذا ويردون ذاك، حتى أنهم اختاروا القصائد السبعة المعروفة، لامرؤ القيس، والحارث بن حلزة، وقصيدة لبيب بن ربيعة العامري، وهذا هو الصحابي الوحيد الذي له معلّقة: لبيب رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

فلما نزل هذا القرآن بهرهم، بهر العرب هذا القرآن! تخيل العرب من صنعتهم الكلام، الذين يجري الكلام في دمائهم، انبهروا بهذا الكتاب، لماذا؟ لأن هناك فرق بين الكلامين.

مع أن هذا القرآن أنزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}[الشعراء:195] أي نزل بلغتهم، ومع ذلك بهرهم هذا الأسلوب! بهرهم هذا الكلام، لماذا! لأن هناك فرق بين القرآن، وبين أي كلام، ما هو هذا الفرق؟ الفرق أن القرآن هو كلام الله ﷻ.

قال الله ﷻ في شأنه: {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}[الحشر:21]، ولذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنه وأرضاه يذكر أن من نعم الله ﷻ على الخلق أن يسر لهم تلاوة هذا القرآن!

من نعم الله ﷻ على الإنسان أن استطاع الإنسان قراءة هذا الكلام وتلاوة هذا الكلام، فيقول: "لولا أن الله ﷻ يسره على البشر لما استطاع أحد أن يتكلم بكلام الله ﷻ، لكن الله ﷻ يسره لنا"، ولذلك امتن ربنا علينا بهذا الأمر فقال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}[3] هل من مدكر؟

والله ﷻ ذكر أوصاف الذين أنزل عليهم هذا القرآن، فالله ﷻ امتن على البشر بأن يسر لهم هذا الكلام.

قال الله ﷻ في حال من تنزل عليهم القرآن: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا}[الزمر:23] يشبه بعضه بعضًا، {مَّثَانِيَ} ماذا تعني؟ أي مكرر، يتكرر القرآن، يُسمع دائمًا، ولذلك لما وصف الله الفاتحة قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}[الحجر:87] لماذا سميت مثاني؟ لأنها تكرر في كل ركعة، لا تصح صلاة امرئ لا يتلو فاتحة الكتاب.

---

[3] 1. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿القمر: ١٧﴾
2. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿القمر: ٢٢﴾
3. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿القمر: ٣٢﴾
4. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿القمر: ٤٠﴾

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ}[الزمر:23] أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار ﷻ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف .. {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} لما يرجون ويؤملون من رحمة الله عز وجل ولطفه، فهم مخالفون للكفار، الكفار يسمعون الأغاني، يسمعون نغمات لأبيات من أصوات القينات، لكن هؤلاء سماعهم تلاوة الآيات.

المؤمنون {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا}[مريم:58] بأدب وخشية ورجاء ومحبة وعلم وفهم، كما قال الله ﷻ: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال:2-4]

وقال الله ﷻ في شأن صفات عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}[الفرقان:73] أي لا يتشاغلون عند سماع القرآن بغيره.

الأمر الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم عند تلاوة رسول الله ﷺ للآيات يلزمون السكينة والوقار، يلزمون المحبة لله ﷻ، يلزمون الأدب عند سماع القرآن بخلاف الذين كفروا {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[فصلت:26].

القرآن أيها الكرام إما أن يكون حجة لك وإما أن يكون حجة عليك، إن لم تكتفِ بهذا القرآن فهو حجة عليك، النبي ﷺ يقول في الحديث الذي رواه الإمام المسلم في الصحيح: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء)[4]

تنبه! (الصلاة نور) لكن (الصبر ضياء) ما الفرق بين النور والضياء؟

[4] [عن أبي مالك الأشعري:] الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بَيْنَ السَّمواتِ والأَرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أَوْ مُوبِقُها.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

ربنا ﷻ لما ذكر نوح عليه السلام قال: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}[نوح:15-16]

السراج هو الضياء بالضبط، سراج الشمس أي ضياء الشمس، مُحرق، لكن نور القمر مُريح، ولذلك من يتمدحون، هل يتمدحون بذكر القمر أو بذكر الشمس؟ يقفون تحت الشمس أم تحت القمر؟ تحت القمر، لا يقفون تحت الشمس وإنما يقفون تحت القمر، فالنبي ﷺ ذكر ذلك قال: (الصلاة نور) أي مريحة، تجعل الإنسان مطمئنًا، هادئ البال مستريح الخاطر، لكن (الصبر ضياء).

ثم قال ﷺ: (والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) أي كل الناس يبيع نفسه، كل الناس يتعرض، كل الناس يخرج، لكن من الناس من يبيع نفسه فتعتق من النار، ومن الناس من يبيع نفسه فتوبق والعياذ بالله عز وجل.

إذاً أيها الكرام هذا هو القرآن.

الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم كانوا إذا قرأوا القرآن تنزل القرآن في جذور قلوبهم ليربيهم، هذا القرآن هو الذي ربى الصحابة رضي الله تعالى عنهم، رباهم الله ﷻ بهذا القرآن، ورباهم النبي ﷺ بهذا القرآن، واستمر هذا القرآن حاديًا لهم في طريقهم طوال حياتهم.

الآن الأمر اختلف عند الناس، فأصبح الخلل عندنا في الحقيقة أننا ابتعدنا عن القرآن، فمثلًا لو رأيت أول سورة أنزلت في القرآن، قال الله ﷻ في أول سورة.. أول خمس آيات نزلت في القرآن في سورة العلق، لما نزل جبريل على النبي ﷺ (فضمه) وفي رواية (فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له: "اقرأ" ثلاث مرات، قال: ما أنا بقارئ)[5].

[5] [عن عائشة أم المؤمنين:] كانَ أوَّلَ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلَاءُ، فَكانَ يَلْحَقُ بغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه - قالَ: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهْلِهِ ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بمِثْلِهَا حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ، وهو في غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ المَلَكُ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما أنَا بقَارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فَقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنْسَانَ مِن عَلَقٍ، اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ} - الآيَاتِ إلى قَوْلِهِ - {عَلَّمَ الإنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} فَرَجَعَ بهَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ على خَدِيجَةَ، فَقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ، حتَّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، قالَ لِخَدِيجَةَ: أيْ خَدِيجَةُ، ما لي لَقَدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي، فأخْبَرَهَا الخَبَرَ، قالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أبْشِرْ فَوَاللَّهِ لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، فَوَاللَّهِ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ، وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِي أبِيهَا، وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العَرَبِيَّ، ويَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعَرَبِيَّةِ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ

أول آيات نزلت عليه ماذا كانت؟ خمس آيات {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق:1-5].

أول آية في القرآن ذكر الله ﷻ فيها منهاج المؤمنين،

✓ أولًا: المعرفة هذا أول شيء، معرفة الله ﷻ: أول واجب على العبيد .. معرفة الرحمن بالتوحيد

أول ما يجب على الإنسان أن يعلم الله، أن يعرف الله ﷻ، ووسيلتها- ما وسيلة هذه المعرفة؟ القراءة، وليست القراءة فحسب وإنما القراءة باسم الرب، وهذه تترجم: "اقرأ لتتربى"!

لماذا ذكر الله ﷻ هنا {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، هنا المعرفة ووسيلتها القراءة، والقراءة باسم الرب هي غاية العلم، فأبرز الله هنا عنوان الربوبية؛ ليقول: اقرأ هذا القرآن لتتربى!

ليس هذا وفقط بل قال الله ﷻ: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} فكلما قرأت القرآن أكثر تعرضت لكرم الأكرم ﷻ، كلما ازدادت قراءتك للقرآن أكرمك الله ﷻ أكثر، وأفاض الله ﷻ عليك أكثر، وأنعم الله ﷻ عليك أكثر، ونور الله ﷻ عليك قلبك أكثر وأكثر.

ولذلك هذا القرآن هو الذي بنى الإيمان في نفوس الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، البناء الأول الذي بناه القرآن هو بناء الإيمان، نحن يا إخواننا إذا أراد أحدنا أن يصلح قلبه، إلى أين يتجه؟ إذا أراد الإنسان أن يصلح قلبه، أو إذا أراد أن يزكي نفسه إلى أين يتجه؟ بعض الناس يتجه إلى بنيات الطريق، أحدهم يجد قلبه في الأناشيد، فيذهب ويسمع أناشيد كثيرة مثلًا من أجل أن يصلح قلبه، وآخر يجد نفسه في الروايات، فمثلًا يذهب إلى روايتين أو ثلاث من الروايات الحزينة ويقرأ فيهم حتى تعود نفسه إليه، لكنه بذلك يطيل الطريق على نفسه، إذا كان لدى أحدهم طريق مستقيم، وهذا هو الطريق الواضح، ثم يلفّ لمسافة طويلة حتى يصل، قد يصل وقد لا يصل؟ قد يفوته الميعاد المحدد للوصول، لأنه أطال الطريق، فهذه هي المشكلة والمصيبة، أما لو مشيت مستقيمًا ستصل في وقت أقل.

عَمِيَ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قالَ ورَقَةُ: يا ابْنَ أخي، مَاذَا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَبَرَ ما رَأَى، فَقالَ ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علَى مُوسَى، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا، ذَكَرَ حَرْفًا، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بما جِئْتَ به إلَّا أُوذِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، حتَّى حَزِنَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٥٣ • [صحيح]

هذا هو القرآن الذي فيه العز، وتزكية القلب والذي فيه صـــلاح النفس، أقبلْ على هذا القرآن! تعالَ إلى هذا القرآن! هذا القرآن هو أقصر الطرق التي تزكي نفسك بها.

وجدتُ بعض الناس لا يفتح القرآن إلا من رمضان إلى رمضان، أول ما يفتح القرآن في رمضان يشعر أن هناك مشـــكلة، وبعد قليل حين يكثر من قراءة القرآن يبدأ القرآن ينفتح له، لأن القرآن كتاب عزيز، الله ﷻ يقول: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ}[فصـــلت:41-42]، فكلما طالت صـــحبة العبد للقرآن، أعطاه القرآن من نوره.

لذلك ابن تيمية رحمه الله تعالى في آخر حياته ندم، لمْ؟ قال: "وندمت على تضـــييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن"، الذي هو منهاج الوحي كله، مع أن ابن تيمية ظلّ يفســـر ســـورة نوح ســـنة كاملة، ســـنة كاملة يفســـر ســـورة نوح! ومع ذلك ندم في آخر حياته على تضـــييع أكثر أوقاته في غير القرآن، تخيل شخصًا يستغرق سنة كاملة يفسر سورة نوح ويرجع في آخر الزمان يندم على أنه لم يشغل وقته أكثر بهذا القرآن العظيم.

هذا القرآن هو الذي فيه البلاء والإنذار.

لذلك لما سُـــئل بعض العلماء قيل له: "لكل كتاب ترجمة –كل كتاب له عنوان– فما ترجمة القرآن؟" فقال:{هَٰـــذَا بَلَـــغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ}[إبراهيم:٥٢] هذه ترجمة القرآن، أنه جاء ينذرك وجاء لينتشلك، ينتشل الجميع، ينتشلنا مما نحن فيه من ظلمات إلى نور الإيمان.

لذلك ربنا ﷻ يقول: {أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰـــهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ}[الأنعام: ١٢٢]، قال بعض أهل التفســـير: "النور هو القرآن، النور الذي يمشـــي به في الناس هو هذا القرآن"، هو الذي أخذه مما فيه إلى النور، انتشـــله من الظلمات، ظلمات ماذا؟ هو ليس ميتًا يعني انتهت حياته، لا، هو ميت أي قابع في ظلمات المعاصي، ظلمات الشرك، ظلمات الأهواء، فهذا القرآن جاء وانتشله من هذه الظلمات إلى النور الحقيقي، إلى الطريق الحق، إلى نور الإيمان، فمن أراد أن يبني نفســـه إيمانيًا لا بد أن يلجأ إلى القرآن.

كيف بُني إيمان الصحابة رضي الله عنهم في مكة؟ بهذا القرآن، هذا القرآن هو الذي بنى الإيمان في نفوس الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها قالت: (كان أول ما أنزل الله ﷻ من الآيات في القرآن، آيات فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس) أي أصبحت نفوسهم مستقيمة وراضية بكل الأوامر والنواهي، (حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام أنزل الله ﷻ عليهم الحلال والحرام)[6] ربنا ﷻ أنزل التكاليف.

ولذلك العلماء عندما يأتون لذكر الضوابط التي تفرّق ما بين المكي والمدني، يقولون إن السور التي تكثر فيها الأحكام هي سور مدنية، لكن السور التي تُذكر فيها المواعظ، والإيمان بالله ﷻ، وتوحيد الله ﷻ في الأغلب ستكون سورًا مكية.

تعالَ وتأمل القرآن المكي، بل تأملْ سورة واحدة فقط من القرآن المكي، وانظر إلى هذه السورة كيف تبني الإيمان في نفوس المسلم، وهي سورة الأنعام، سورة الأنعام سورة عجيبة سبحان الله، تبني هذه السورة الإيمان في داخلك، ما أوّل سورة الأنعام؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[الأنعام:1] لخّص كل الأمر، كل شيء لخص في هذه الجملة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، انظر! السموات على اتساعها، والأرض على بسطها بما فيها وما ومن فيها ومن عليها، وليس ذلك فقط {وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ}، هذه إشارة إلى الإيمان والكفر، ثم يذيّل الآية فيقول: {ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} بعد هذا كله يعدلون بالله ﷻ!

هذه السورة ذكر الله ﷻ فيها قصة إبراهيم مع قومه {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}[الأنعام:80] ثم يقول لهم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} أين عقولكم؟ أين ذهبت هذه العقول؟ {وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ

---

[6] [عن عائشة أم المؤمنين:] إِنِّي عِنْدَ عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، إذْ جاءَها عِراقِيٌّ، فَقالَ: أيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قالَتْ: ويْحَكَ! وما يَضُرُّكَ؟ قالَ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قالَتْ: لِمَ؟ قالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القُرْآنَ عليه؛ فإنَّه يُقْرَأُ غيرَ مُؤَلَّفٍ، قالَتْ: وما يَضُرُّكَ أيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إنَّما نَزَلَ أوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيها ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسْلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرامُ، ولو نَزَلَ أوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنا أبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بمَكَّةَ على مُحَمَّدٍ ﷺ وإنِّي لَجارِيَةٌ ألْعَبُ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، وما نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ والنِّساءِ إلَّا وأنَا عِنْدَهُ، قالَ: فأخْرَجَتْ له المُصْحَفَ، فأمْلَتْ عليه آيَ السُّوَرِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٩٣ • [صحيح]

سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[الأنعام:81-82] يا الله! انظر كيف تغرس هذه الآيات الإيمان في قلبك! أنك لا تخاف من شيء، لا تخشَ أي شيء إلا الله ﷻ.

بل انظر مثلًا بعدها مباشـرة: {إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْـبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَـكَنًا}[الأنعام:95-96] -وفي قراءة أخرى {وجاعل الليل سكنًا}- {وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ}.

اقرأ في أول السـورة: {وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ}[الأنعام:13]، اقرأ في ثنايا السـورة: {وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْـقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ}[الأنعام:59].

هذا القرآن علّم الصحابة رضي الله تعالى عنهم الإخلاص، وأنهم بالله لا بأنفسهم، انظر إلى القرآن بعد قصة الإسراء والمعراج! في سورة الإسراء، قال الله ﷻ لنبيه: {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا}[الإسراء:86]، يقول له: إياك أن تظن أنّك بنفسك، بل أنت بالله فقط ﷻ، وقال الله لرسوله ﷺ: {وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا}[الإسراء:٧٤].

بعد الغزوات مع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، ينزل القرآن بعد كل نصر حقّقوه مع المشركين، يقول لهم إياكم أن تغتروا بهذا النصر، فإن الذي نصركم هو الله.

بعد غزوة بدر ينزل قول الله ﷻ: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا}[الأنفال:١٧].

بعد غزوة الأحزاب يقول ربنا ﷻ: {وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}[الأحزاب:٢٥].

بعد غزوة بني النضـير ينزل قول الله ﷻ: {هُوَ ٱلَّذِىٓ} هو سـبحانه وتعالى {أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِـبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ}[الحشر:٢].

ربّاهم القرآن على الأدب مع الله ﷻ، وعلى الأدب مع رسول الله ﷺ، في حديث ابن أبي مليكة: (كاد الخيران أن يهلكا)، من هما الخيران؟ أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما.

أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما حصل بينهما مشكلة بسيطة في حضرة رسول الله ﷺ: جاء وفد بني تميم، ركْب بني تميم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: "أمّرْ عليهم الأقرع بن حابس" اجعل أميرهم الأقرع بن حابس، وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا بل أمّرْ عليهم القعقاع بن عمرو". فأبو بكر رضي الله عنه قال له: "والله ما أردتَ إلا خلافي" -أنا كلما قلتُ أمرًا تخالفني أي أنت لم تقل الرجل الثاني هذا إلا لتخالفني- فقال له عمر رضي الله عنه: "والله ما أردت خلافك"، انتهى الموقف.

ارتفعت أصواتهما فأنزل الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}[الحجرات:2] يا الله! يكلّم من؟ يكلّم أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما اللذان هما أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ، لكن القرآن لا يحابيهم، بل يربيهم.

هذه هي التربية التي نحتاجها نحن في هذه الأيام: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ}[العنكبوت:51] هذا القرآن فيه الكفاية، ولكن يحتاج إلى تأمل، يحتاج إلى مصالحة، يحتاج إلى قرب.

لما جاء بعض الأعراب إلى النبي ﷺ وقالوا له: "يا محمد قاتلَتك مضر" جماعتك قاتلوك، "ولسنا بأقلّهم عددًا" لا تفكر أبدًا أننا أتينا لنُسلِم لأننا قلّة أو خوفًا منك، "ولا أكلُّهم شوكة" الكلول هو الضعف، أي ونحن لسنا ضعفاء ولا عددنا بقليل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: (تكلموا هكذا) -أيصحّ أن تتكلموا مثلهم هكذا- فقالوا له: لا. كيف نكلمك بهذه الصورة ما نكلمك بهذه الصورة أبدًا.

فأنزل الله ﷻ: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} أي هؤلاء الأعراب، القرآن يربيهم، يقول الله تعالى لهم: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[الحجرات:17]

يقول لهم: لا تمنوا عليه إسلامكم -الأعراب من بني تميم-، لا تكلموه بهذه الطريقة.

ومع ذلك أيها الكرام قد ينزل القرآن في عتابهم مع أنه يربيهم، ومع ذلك يربيهم القرآن في ذات رسول الله ﷺ، فلما أعرض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم أنزل الله ﷻ في شأنه آيات خاصة به، يقول له -ابن أم مكتوم-: يا رسول الله كذا وكذا؛ فالنبي ﷺ يُعرض عنه، ويذهب إلى أبي جهل، مع أن المرء قد يفكّر أن هذا الصواب فعلًا؛ لأن هذا الرجل عنده سلطان، فَلَو أسلم ستفتح الدنيا على يده، لكن الثاني ضعيف.

وقد يفكر بعض الناس هكذا، حينما تذهب لتدعو فستذهب إلى دارس للطب مثلًا، أما الشخص العادي فإن جاء؛ جاء، وإن لم يأتِ؛ فلا مشكلة، أي إن التزم؛ التزم وإن لم يلتزم؛ فلن يؤثر في شيء، ولكن الثاني سيؤثر، وبنفس المنطق يفكر الناس بهذه الصورة، لذلك رب العالمين يُنزل ويقول: {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ}[عبس:1] وهذا من جميل القول لم يقل له: عبست وتوليت، القرآن حتى في العتاب لطيف.

فربنا ﷻ لما عاتبه مرة أخرى أيضًا في شأن الذين أعرض عنهم من المنافقين قال: {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ} قدّم العفو، الذي حصل قد حصل وانتهى، {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}[التوبة:43].

فربنا ﷻ يقول: {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ} يتكلم عنه بلفظ الغائب لئلا يواجهه بهذا الأمر بل يعاتبه بلطف: {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ}[عبس:1-4] ليست مشكلتك أن الضعيف هو الذي يؤمن؛ (يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد)[7] ليست مشكلتك من الذي يؤمن، يقول: {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ}[عبس:1-12]، الرسول ﷺ كلما كان يرى ابن أم مكتوم كان يقول: (مرحبًا بالذي عاتبني ربي فيه) سبحان الله! الله ﷻ عاتب النبي ﷺ تربيةً لأصحابه رضي الله عنهم.

---

[7] [عن عبدالله بن عباس:] خَرَجَ عَلَيْنا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ معهُ الرَّجُلُ، والنَّبِيُّ معهُ الرَّجُلانِ، والنَّبِيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنَّبِيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ، ورَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فقِيلَ: هذا مُوسى وقَوْمُهُ، ثُمَّ قيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذا وهَكَذا، فَرَأَيْتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فقِيلَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ، ومع هَؤُلاءِ سَبْعُونَ ألْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بغيرِ حِسابٍ. فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ولَمْ يُبَيَّنْ لهمْ، فَتَذاكَرَ أصْحابُ النَّبِيِّ ﷺ فقالوا: أمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنا في الشِّرْكِ، ولَكِنَّا آمَنَّا باللَّهِ ورَسولِهِ، ولَكِنْ هَؤُلاءِ هُمْ أبْناؤُنا، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقامَ عُكّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: نَعَمْ. فَقامَ آخَرُ فَقالَ: أمِنْهُمْ أنا؟ فَقالَ: سَبَقَكَ بها عُكّاشَةُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٧٥٢ • [صحيح] • أخرجه مسلم (٢٢٠) باختلاف يسير

بـل هـل تعرفون قول الله ﷻ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}[الحديد:16]

هذه الآية مخاطبة لمن؟ مخاطبة للصحابة رضي الله عنهم.

متى نزلت هذه الآية؟ بعد أربع سنوات فقط!

سيدنا ابن مسعود يقول: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} إلا أربع سنوات فقط."

بل في مرة من المرات –انظر إلى التربية، فأيّ موقف ينبههم القرآن عليه–: في يوم جمعة أقبلت العير، – ماذا يعني عير؟ قافلة فيها طعام وشراب–، فأقبلت عير يوم الجمعة والصحابة مع رسول الله ﷺ فثار الناس عندما دخلت العير المدينة، فالصحابة كلهم قاموا وتركوا النبي ﷺ إلا اثني عشر رجلًا، فأنزل الله ﷻ –انظر القرآن يعاتبهم ويربيهم–: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ}[الجمعة:11].

فالقرآن دائمًا ما يعاتب الصحابة ويربيهم، وأحيانًا يثني عليهم، ويبني الإيمان في قلوبهم، يربيهم على الإيمان، ولم يربّهم على الإيمان فحسب وإنما رباهم على الإيمان ورباهم على العبادة.

في حديث أبي بردة رضي الله عنه قال: (بعث النبي ﷺ أبا موسى) من هو أبو موسى؟ الأشعري عبد الله بن قيس، (بعث أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن)[8] وذكر حديثًا طويلًا وفيه: فقال –أي معاذ بن جبل–: "يا عبد الله" يكلم أبا موسى فيقول له: "يا عبد الله كيف تقرأ القرآن؟ فقال له: أقرأه قائمًا وقاعدًا وعلى راحلتي وأتفوقه تفوقًا"، هذا شخص ليس وراءه عمل طوال النهار إلا القرآن.

[8] [عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري:] بَعَثَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أبا مُوسى ومُعاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليَمَنِ، قالَ: وبَعَثَ كُلَّ واحِدٍ منهما على مِخْلافٍ، قالَ: واليَمَنُ مِخْلافانِ، ثُمَّ قالَ: يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، فانْطَلَقَ كُلُّ واحِدٍ منهما إلى عَمَلِهِ، وكانَ كُلُّ واحِدٍ منهما إذا سارَ في أرْضِهِ كانَ قَرِيبًا مِن صاحِبِهِ أخَذَ به عَهْدًا، فَسارَ مُعاذٌ في أرْضِهِ قَرِيبًا مِن صاحِبِهِ أبِي مُوسى، فَجاءَ يَسِيرُ على بَغْلَتِهِ حتّى انْتَهى إلَيْهِ، وإذا هو جالِسٌ وقَدِ اجْتَمَعَ إلَيْهِ النّاسُ، وإذا رَجُلٌ عِنْدَهُ قدْ جُمِعَتْ يَداهُ إلى عُنُقِهِ، فَقالَ له مُعاذٌ: يا عَبْدَ اللَّهِ بنَ قَيْسٍ، أيُّمُ هذا؟ قالَ: هذا رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إسْلامِهِ، قالَ: لا أنْزِلُ حتّى يُقْتَلَ، قالَ: إنَّما جِيءَ به لِذلكَ، فانْزِلْ، قالَ: ما أنْزِلُ حتّى يُقْتَلَ، فأمَرَ به فَقُتِلَ، ثُمَّ نَزَلَ، فَقالَ: يا عَبْدَ اللَّهِ، كيفَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قالَ: أتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، قالَ: فَكيفَ تَقْرَأُ أنْتَ يا مُعاذُ؟ قالَ: أنامُ أوَّلَ اللَّيْلِ، فأقُومُ وقدْ قَضَيْتُ جُزْئِي مِنَ النَّوْمِ، فأقْرَأُ ما كَتَبَ اللَّهُ لِي، فأحْتَسِبُ نَوْمَتِي كما أحْتَسِبُ قَوْمَتِي.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٣٤١ • [صحيح]

يقول أقرأه قائمًا، وقاعدًا، أي على أي هيئة كانت، وأنا قائم في الصـــلاة أقرأ القرآن، وأنا جالس أقرأ القرآن، أقرأه قائمًا وقاعدًا وعلى راحلتي، وأنا راكب، "**أتفوقه تفوقًا**" .. "التفوق" لفظ مأخوذ من فواق الناقة، عندما تُحلب الناقة لا تحلب مرة واحدة، وإنما تُحلب ثم تترك، ثم تُحلب ثم تترك، ثم تحلب ثم تترك، فهو يقول: "أنا حالي مع القرآن، كحال الذي يحلب الناقة"، اقرأ فترة، ثم أترك، ثم أقرأ وأترك، وبعدها أقرأ ثم أترك، هذا هو حالي مع القرآن، ثم قال لمعاذ: "فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟" فمتى تقرأ القرآن؟ انظروا كيف كانت أحوال الصحابة!

لاحظوا أيضًـا كيف ربّى القرآن الصـحابة على العبادة؟ اختلفت أحوالهم؟ أي أن أحوال معاذ رضـي الله عنه وأرضـاه ليسـت مثل أحوال أبي موسـى، مثلنا ومثل أحوالنا أيضًـا، فمن الممكن أن يكون شـخص مشـغول، وشـخص لديه وقت –شـخص لديه عمل وآخر يعمل بالليل وثالث يعمل بالنهار– فهل لك عذر أن تترك قراءة القرآن؟ لا، ليس لديك أي عذر، هكذا سـأله رضـي الله تعالى عنه وأرضـاه، فسـأله: "فكيف تقرأ أنت القرآن يا معاذ؟ فقال معاذ رضـي الله عنه: "أنام أول الليل، فأقوم وقد قضـيت جزئي من النوم " إذًا بعدما ينام، يسـتيقظ؛ ليبدأ ويصـلي ويقرأ القرآن أثناء الليل، "فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي" رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وفي القرآن تنبيه لهم على الجمع، –انظر– في قول الله ﷻ: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَـاجِدًا وَقَائِمًا}[الزمر:9]، {سَـاجِدًا وَقَائِمًا} فما حالته هنا؟ فحالته ظاهريًا أنه سـاجد وقائم، ولكن أين الأحوال الباطنية؟ حتى ترى أن تربية القرآن على العبادة فيها المزج بين الأمرين، يمزج بين الظاهر والباطن، ولا يهتم بالظاهر فقط على حسـاب الباطن، ولا يهتم بالباطن على حسـاب الظاهر، وإنما يجمع بين الأمرين.

يقول الحق ﷻ: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَـاجِدًا وَقَائِمًا} هذه حالته الظاهرية المرئية، إذًا أين حالته الداخلية؟ {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

ولذلك من أوائل السور التي نزلت، نزل القرآن ليربيهم فيها على العبادة سورة المزمل: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا}[المزمل:1–3].

ولذلك عندما سُئلت عائشة رضي الله تعالى عنها كما في سنن أبي داوود عن قيام رسول الله ﷺ لقيام الليل، فقالت: "ألست تقرأ سورة المزمل؟ قال: قلت بلى، قالت: "فإن أول هذه السورة نزلت، فقام أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتفخت أقدامهم، وحبس خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا"[9]، سنة كاملة وقيام الليل فرض على الصحابة، بلال وعمار وسمية رضوان الله عليهم، الذين كانوا يعذبون طيلة النهار، كان قيام الليل فرضًا عليهم؛ لذلك صبروا يا إخوة.

هذا الصبر لا يأتي من فراغ، هذا الصبر يأتي من بناء، هذا الصبر الذي صبره أصحاب النبي ﷺ، إنما أتى من أناس نفوسهم مبنية من الأساس، نفوسهم مستقيمة؛ فلذلك صبروا.

لكن من أين يأتي الإنسان بمواجهة لكل هذه الشبهات والشهوات إن لم يكن صادق الإيمان، لو لم يكن لديه رصيد.

هذه الشبهات والشهوات التي تعصف بالناس عصفًا، هذه الملهيات التي تأخذ بالناس أخذًا شديدًا، لو لم يكن لدى الإنسان بناء إيماني كيف سيُقبل، وكيف سيتحمل، لذلك أصبح الناس يتفلتون، أي من كان يقوم الليل لم يعد يقوم الليل، ومن كان له ورد من القرآن لم يعد له ورد من القرآن، أصبح له ورد في الفيس بوك، وورد في توتير، وورد في سناب شات، وورد في التليجرام، وفي الواتس آب، كل شيء فيه أوراد، والملهيات شديدة بالمناسبة، هذه الملهيات عظيمة جدًا، فلو لم يربي الإنسان نفسه جيدًا سيضيع! وفي النهاية سيجد نفسه وقد جرت الأيام به، في النهاية يجد نفسه في القبر، وفي القبر لا يوجد توتير، ولا

---

[9] [عن عائشة أم المؤمنين:] عن سعدِ بنِ هشامٍ قالَ : طلَّقتُ امرأتي فأتيتُ المدينةَ لأبيعَ عقارًا كانَ لي بِها فأشتريَ بِهِ السِّلاحَ وأغزو فلقيتُ نفرًا من أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا قد أرادَ نفرٌ منَّا ستَّةٌ أن يفعَلوا ذلِكَ فنَهاهُمُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ لقد كانَ لَكُم في رسولِ اللَّهِ أسوَةٌ حسَنةٌ فأتيتُ ابنَ عبَّاسٍ فسألتُهُ عن وترِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ أدلُّكَ على أعلَمِ النَّاسِ بوترِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فأتِ عائشةَ رضيَ اللَّهُ عنها فأتيتُها فاستتبَعتُ حَكيمَ بنَ أفلحَ فأبى فَناشدتُهُ فانطلقَ معي فاستأذنَّا على عائشةَ فقالَت مَن هذا قالَ حَكيمُ بنُ أفلحَ قالت ومن معَكَ قالَ سعدُ بنُ هشامٍ قالت هشامُ بنُ عامرٍ الَّذي قُتلَ يومَ أُحُدٍ قالَ قلتُ نعَم قالت نِعمَ المرءُ كانَ عامرٌ قالَ قلتُ يا أمَّ المؤمنينَ حدِّثيني عن خُلُقِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قالت ألستَ تقرأُ القرآنَ فإنَّ خُلُقَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ القرآنَ قالَ قلتُ حدِّثيني عن قيامِ اللَّيلِ قالت ألستَ تقرأُ يا أيُّها المُزَّمِّلُ قالَ قلتُ بلَى قالت فإنَّ أوَّلَ هذهِ السُّورةِ نزلَت فقامَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى انتفخَت أقدامُهُم وحُبسَ خاتمُتُها في السَّماءِ اثنَي عشرَ شَهرًا ثمَّ نزلَ آخرُها فصارَ قيامُ اللَّيلِ تطوُّعًا بعدَ فريضةٍ قالَ قلتُ حدِّثيني عن وترِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قالت كانَ يوترُ بثمانِ رَكَعاتٍ لا يجلِسُ إلَّا في الثَّامنةِ ثمَّ يقومُ فيصلِّي رَكْعةً أخرى لا يجلسُ إلَّا في الثَّامنةِ والتَّاسعةِ ولا يسلِّمُ إلَّا في التَّاسعةِ ثمَّ يصلِّي رَكعتَينِ وَهوَ جالسٌ فتلكَ إحدى عشرةَ رَكْعةً يا بُنَيَّ فلمَّا أسنَّ وأخذَ اللَّحمَ أوترَ بسبعِ رَكَعاتٍ لم يجلِسْ إلَّا في السَّادسةِ والسَّابعةِ ولم يسلِّمْ إلَّا في السَّابعةِ ثمَّ يصلِّي رَكعتَينِ وَهوَ جالسٌ فتلكَ هيَ تسعُ رَكَعاتٍ يا بُنَيَّ ولم يقُمْ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةً يتمُّها إلى الصَّباحِ ولم يقرأِ القرآنَ في ليلةٍ قطُّ ولم يصُم شَهرًا يتمُّهُ غيرَ رمضانَ وَكانَ إذا صلَّى صلاةً داومَ عليها وَكانَ إذا غلبَتهُ عيناهُ منَ اللَّيلِ بنومٍ صلَّى منَ النَّهارِ ثِنتَي عشرةَ رَكْعةً قالَ فأتيتُ ابنَ عبَّاسٍ فحدَّثتُهُ فقالَ هذا واللَّهِ هوَ الحديثُ ولَو كنتُ أُكَلِّمُها لأتيتُها حتَّى أشافِهَها بِهِ مشافَهَةً قالَ قلتُ لَو عَلِمتُ أنَّكَ لا تُكَلِّمُها ما حدَّثتُكَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ١٣٤٢ • صحيح

أي شـــيء، القبر إما نعيم، أو عذاب، نســـأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم، فالعمل قد انتهى حينئذ، لا يبقى للإنسان إلا ما تركه من خير، أو ما تركه من شر.

ولذلك ربنا ﷻ ذكر هذا في القرآن أيضًا، وهذا مما رُبي عليه الصحابة أيضًا، في أول السور المكية، فمن الممكن أن نجد لنا عذرًا، أي نجد الناس الآن تبحث عن أعذار، يســأل فلانًا وفلانًا، يريد أن يجد مخرجًا لأي شـــيء يفعله، ربنا ﷻ أخبر عن ذلك فقال: {بَلِ الْإِنسَـــانُ عَلَىٰ نَفْسِـــهِ بَصِـــيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ}[القيامة:14-15].

مهما وجدت من أعذار لك، فأنت تعرف نفســـك جيدًا، فأنت تعرف أن ما تفعله خطأ، إذًا فلتقلع عنه، ولا تحاول أن تبرر الخطأ لنفســـك؛ لذلك كان الشـــيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، كان كما يقولون عليه أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء، وكان عالمًا كبيرًا، ومن أحسن من تقرأ له في حياتك هو الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى.

لم يكن الشـيخ علي الطنطاوي مطلقًا لحيته، فسـأله رجل وقال: " يا مولانا ما حكم حلق اللحية؟ –هو غير ملتحٍ– ، فرد عليه: "لا أجمع على نفسي ذنبين، حلق اللحية حرام، وأنا مقصر"

انظر إلى الرجل! سـبحان الله رجل فقيه! فلم يحاول أن يراوغ أو يبحث لنفســه عن العذر، مع أنه كان رجل فقيه، وعلّامة، وكبير، كان من الممكن أن يجد مخارجًا لنفســـه، على عكس ما يحدث الآن، فأي شـيء اليوم أصبح حلالًا، وبالأدلة الشـرعية! كل شـيء، ومن الممكن أن نكتب كتبًا في هذا الشـأن، لا مشـكلة على الإطلاق، أي لا توجد أية مشـكلة عند من أراد أن يفعل أي شـيء، فاللعب في النصـوص أصبح أمرًا ميسورًا، فأي شخص يكتب مثلًا كلمتين من هنا مع كلمتين من هناك وسيجد الأمر على ما يرام، لكن الرجل بمنتهى البساطة أقرّ على نفسه بالخطأ؛ ولذلك ذنب مع معرفة خير من ذنب مع تبرير، أن تذنب وأنت تعلم أن هذا ذنب، أفضـــل كثيرًا من أن تذنب وتقول: فلان قال أنه حلال، وفلان قال كذا وكذا، لا تحاول!

الصـــحابة رضـــي الله تعالي عنهم وأرضـــاهم بُنيت عباداتهم بالقرآن العظيم، هذه مثلًا كانت عبادتهم في الصلاة.. عبادتهم في النفقة، فمن الممكن أن يسأل بعض الناس مثلًا الآن، الناس التي تسأل في الشوارع أحيانًا كثيرة –الواحد منكم قد يفكر– فعندما تمشي مثلًا تجد من يطلب منك شيئًا مما لديك من مال، فتدخل يدك في جيبك، وتظل تفكر وتسأل نفسك: هل هو يستحق أم لا؟ وهل يجوز أن أعطيه أم لا!

وماحكم هؤلاء المتسولين؟ ويجد أن الرجل قد فات بمسافة كبيرة جدًا، وهو مازال يفكر، بالتالي لا يعطيه شيئًا، فهو قد فاته بالكثير، وقد ظل يفكر في ذلك، سبحان الله!

مع أنه كان من الممكن أن يتصدق، فالرجل الذي تصدق على سارق، وتصدق على زانية، وتصدق على غني، فهل ربنا قَبِل منه أم لم يقبل؟ قَبِل منه، حتى ولو شيء يسير.

كان الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه ورحمه جالسًا، فأتاه سائل ولم يكن عند الفضيل أي شيء يعطيه للرجل، فماذا حدث؟ فزجره فيض بن إسحاق، الذي كان بصحبة الفضيل بن عياض، فقال له الفضيل بن عياض: "يا فيض أما علمت أن حوائج الناس إليكم نعمة من الله عليكم، فاحذروا أن تملوا نعمة الله فتُحول نقمًا، ألا تحمدوا الله أن جعلك موضعًا تُسأل ولم يجعلك موضعًا تَسأل".

يقول له يجب أن تحمد الله أن جعلك موضعًا تُسأل، ولم يجعلك موضعًا تسأل؛ لذلك يخبرنا الكثير من أهل العلم عن أحكام الصدقة فيتحدثون عن هذه النقطة، ويقولون: "أعطه، ولو شيئًا يسيرًا، لئلا تعود نفسك الإمساك" لا تعوّد نفسك على الإمساك، لكن عوّد نفسك على البذل والإنفاق.

لذا كان ابن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه إذا أعجبه شيء من ماله تقرب به إلى الله ﷻ، فقد كان له جارية يحبها حبًا شديدًا، أعتقها، وزوجها مولاه نافع، فسئل عن ذلك فقال: "إني رأيت الله يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}" أعطاه ابن جعفر في نافع مولاه.

هل تعرفون من نافع هذا، أتسمعون هذا الإسناد: مالك عن نافع عن ابن عمر، هذا الإسناد الذهبي، مالك عن نافع عن ابن عمر، فوقتما تجد حديثًا بهذا الإسناد تعظمه في التو، فهو من أفضل الأسانيد، مالك عن نافع عن ابن عمر.

نافع أُعطيَ فيه ابن عمر عشرة آلاف دينار، وهذا مبلغ ضخم جدًا، فأبى أي رفض أن يبيعه، فقالوا له: "ما تنتظر ببيعه" أي من سيأتي ويعطيك فيه أكثر من عشرة آلاف دينار؟ فرد عليه قائلًا: "أنتظر ما هو خير من ذلك هو حر لوجه الله " أي قال أنا منتظر أعلى من كذا، هو حر لوجه الله.

بل ربما أيها الكرام، كانت آية واحدة كفيلة أن يخرج الصحابي من ماله كله، أن ينفق أحدهم ماله، أوَليس حينما نزل قول الله ﷻ: {من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا}[10]، جاء أبو الدحداح إلى النبي

[10] 1. مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿البقرة: ٢٤٥﴾

عليه الصلاة والسلام، قال: "يا رسول الله، أو يريد الله منا القرض، قال: (نعم أبا الدحداح) فقال: "يدك"، أي هات يدك، فناوله يده، فقال: "إني أقرضت ربي حائطي فيه ستمائة نخلة".

يا الله! هل تعرفون يا إخوة ما معنى ستمائة نخلة؟

عمل سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عند امرأة ليخرج لها مياهًا من البئر، فبكم كان يخرج الدلو؟ بتمرة، كان يخرج الدلو بتمرة؛ فتخيلوا شخص عنده ستمائة نخلة! مثل البترول حقًا، -كما يقول أحد الحضور- بترول العرب حقًا -في ذلك الوقت-.

فقال: "فإني أقرضت ربي حائطي، ثم جاء يمشي، حتى أتى الحائط وأم الدحداح -التي هي زوجته- وأم الدحداح فيه هي وأولادها، فناداها" لم يرد أن يدخل، انظروا الإيمان! فقال: "يا أم الدحداح، قالت: "لبيك" ، قال: "اخرجي، فإني أقرضت ربي حائطًا فيه ستمائة نخلة"، فقالت: "ربح البيع أبا الدحداح"[11].

إذًا لم يكن وحده، بل هو وزوجته أيضًا كذلك، سبحان الله آية واحدة فقط، حركت فيه قلبًا، جعلته يخرج كل هذا المال لله ﷻ!

ولما نزل قول الله ﷻ: {لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران:92]، جاء أبو طلحة رضي الله عنه وكان له حائط كبير وعظيم، وكان فيه بئر يستعذب منه الماء لرسول الله ﷺ -ﷺ كان يأخذ منه المياه-، فقال: "يا رسول الله أقرضت ربي حائطي"، قال له أنا قررت أن هذا الحائط كله لله، فقال له النبي ﷺ: (اجعله في قرابتك أو أقاربك)[12].

---

2. مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿الحديد: ١١﴾

[11] [عن عبدالله بن مسعود:] لمّا نزَلَتْ {مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} قال أبو الدَّحداحِ يا رسولَ اللهِ إنَّ اللهَ يُريدُ منّا القَرْضَ قال نعم يا أبا الدَّحداحِ قال أَرِنا يدَك قال فناوَلَه يدَه قال قد أقْرَضْتُ ربِّي حائطي وحائطُه فيه سِتُّمائةِ نخلةٍ فجاء يمشي حتّى أتى الحائطَ وأُمُّ الدَّحداحِ فيه وعِيالُها فنادى يا أمَّ الدَّحداحِ قالت لبَّيك قال اخرُجي فقد أقْرَضْتُه ربِّي

الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٣٢٧/٩ • رجاله ثقات ورجال أبي يعلى رجال الصحيح • أخرجه البزار (٢٠٣٣)، وأبو يعلى (٤٩٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٥٢) باختلاف يسير

[12] [عن أنس بن مالك:] لما نزلت هذه الآيةُ: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ أو مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا قال أبو طلحةَ، وكان له حائطٌ: يا رسولَ اللهِ حائطي للهِ، ولو استطعتُ أن أُسرَّه لم أُعلِنْه، فقال: اجعلْه في قرابتِك، أو أقرَبيك

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٩٩٧ • حسن صحيح • أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، وأبو داود (١٦٨٩)، والترمذي (٢٩٩٧) واللفظ له، والنسائي (٣٦٠٢)، وأحمد (١٣٧٦٧)

بل أحيانًا ينزل القرآن مثنيًا على أخلاقهم، وهذا نوع من أنواع التربية أيضًا، التربية القرآنية لهم، والكفاية القرآنية لهم، أن كل شيء يذكره القرآن لهم، ففي صحيح البخاري: (أن رجلًا أتى النبي ﷺ فبعث النبي ﷺ إلى نسائه الصحابة)، كم عدد بيوت النبي ﷺ؟ تسع بيوت، فقلن: "يا رسول الله ﷺ، ما معنا إلا الماء"، لا يوجد في بيوت النبي ﷺ إلا المياه!

فقام النبي ﷺ وقال: (من يضيف هذا الرجل) فقام أبو طلحة -الرواية تقول أنه رجل من الأنصار-، والرجل عُين في رواية أخرى، وهو أبو طلحة، وامرأته.

فمن امرأة أبي طلحة؟

هي امرأة عظيمة من الصحابيات، كان النبي ﷺ يبيت عندها القيلولة، أم سليم رضي الله تعالى عنها، -وهي أم أنس بن مالك، أم البراء بن مالك، وأم عمير، من هو عمير؟ أبو عمير الذي كان النبي ﷺ يمازحه، ويقول له: (يا أبا عمير ما فعل النغير؟)[13] هذا الصحابي-، فقال أبو طلحة لامرأته: "أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: "ما عندنا إلا قوت صبياني" معناه لا يوجد إلا عشاء الأولاد، فقال: "هيئي طعامك، وأصبحي سراجك"[14]، أي أضيئي المصباح، "ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً" أي لو أرادوا طعامًا، اجعليهم ينامون، "فهيئت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت -وأنامت- صبيانها، ثم وكأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين" يعني لم يأكلا في هذه الليلة شيئًا، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: (ضحك الله الليلة أوعجب الليلة من فعلكما) فأنزل الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر:9].

---

[13] [عن أنس بن مالك:] كان لأبي طَلْحةَ ابنٌ يُقالُ له: أبو عُمَيرٍ، فكان النَّبيُّ يُضاحِكُه قال: فرآه حَزينًا، فقال: يا أبا عُمَيرٍ، ما فعَلَ النُّغَيرُ. شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٢١٣٧ • إسناده صحيح على شرط الشيخين • أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٢١٥٠) مطولاً، وأبو داود (٤٩٦٩)، والترمذي (٣٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٦٦)، وابن ماجه (٣٧٢٠) باختلاف يسير، وأحمد (١٢١٣٧) واللفظ له

[14] [عن أبي هريرة:] أنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إلى نِسائِهِ، فَقُلْنَ: ما معنا إلَّا الماءُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: مَن يَضُمُّ -أوْ يُضِيفُ- هذا؟ فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ: أنا، فانْطَلَقَ به إلى امْرَأتِهِ، فَقالَ: أكْرِمِي ضَيْفَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَتْ: ما عِنْدَنا إلَّا قُوتُ صِبْيانِي، فَقالَ: هَيِّئِي طَعامَكِ، وأَصْبِحِي سِراجَكِ، ونَوِّمِي صِبْيانَكِ إذا أرادُوا عَشاءً، فَهَيَّأَتْ طَعامَها، وأَصْبَحَتْ سِراجَها، ونَوَّمَتْ صِبْيانَها، ثُمَّ قامَتْ كَأنَّها تُصْلِحُ سِراجَها فأطْفَأَتْهُ، فَجَعَلا يُرِيانِهِ أنَّهُما يَأْكُلانِ، فَباتا طاوِيَيْنِ، فَلَمّا أصْبَحَ غَدا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ -أوْ عَجِبَ- مِن فَعالِكُما. فأنْزَلَ اللَّهُ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلى أنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩] البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٧٩٨ • [صحيح]

ولما جلس الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم يتذاكرون ما أحب الأعمال إلى الله؛ فطلع النبي ﷺ عليهم فقال: (فيم تجلسون فقالوا يا رسول الله لو تعلمنا أحب الأعمال إلى الله فأنزل الله ﷻ: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}[الصف:1-2] .. إلى آخر السورة.

بل رباهم القرآن على الأخلاق.

إذًا القرآن رباهم على الإيمان، ربى الإيمان في نفوسهم، ورباهم على العبادة، ورباهم على الأخلاق.

لذلك السيدة عائشة لما سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت: (كان خلقه القرآن)، لما سألها الرجل قالت: (أما تقرأ القرآن؟ قال: لها بلى قالت: فإن خلقه القرآن)[15]، فإن خُلُق نبي الله ﷺ كان القرآن.

لما دخل على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه رجل فأذاه فقال: "هيه يا ابن الخطاب"، وكأنه يقول له: "نعم يا ابن الخطاب"، عمر بن الخطاب كان مخيفًا في حد ذاته، ومع ذلك هذا الرجل كان سفيهًا، شخص الشيطان يفر منه، لو وجده يمشي من طريق يفر ويمشي من طريق آخر، ومع ذلك دخل هذا الرجل وكان سفيهًا فقال " هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل" أي أنك لا تعطينا شيئًا يرد البصر، "ولا تحكم بيننا بالعدل"، فغضب عمر بن الخطاب حتى هَم أن يوقع به، بالتأكيد صاحبنا هذا لو وقع تحت يد عمر بن الخطاب فقد انتهى أمره.

قصة صبيغ بن عسل العراقي مع سيدنا عمر بن الخطاب –وهذه أيضًا من تربية القرآن لهم أنه لا يتكلف–، لما صبيغ بن عسل تكلف وسأل عن "الذاريات ذروًا" فقال عمر لأمير العراق: "ابعثه على ظهر بعير لا إكافَ له" إياك أن تضع تحته بردعة، ابعثه كي يأتي مدغدغًا متعبًا.

[15] [عن عائشة أم المؤمنين:] أَتَيْتُ عائشةَ، فقُلْتُ: يا أُمَّ المُؤمِنينَ، أخْبِريني بخُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، قالت: كان خُلُقُه القُرآنَ، أما تَقرَأُ القُرآنَ، قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، قُلْتُ: فإنِّي أُريدُ أنْ أتبتَّلَ، قالت: لا تفعَلْ، أما تقرَأُ: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١]؟ فقد تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ، وقد وُلِدَ له.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٤٦٠١ • صحيح • أخرجه أحمد (٢٤٦٠١) واللفظ له، وأبو يعلى (٤٨٦٢) مطولاً، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٤٣٥) باختلاف يسير

تخيل أن يجلس أحدهم على حديدة مثلًا وهو مسافر، وبالطبع البعير نازل صاعد، وصاحبنا حالته صعبة، وجهز له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه جريد نخل أخضر، ليس جريد نخل مثلًا يابس سيخبطه خبطة فيُكسر، إنما هذه مهما ضربه بها تظل سليمة.

ونزل على عمر بن الخطاب، وجعل عمر بن الخطاب يضربه إلى أن أُرهق الرجل فتركه، فلما أفاق أتى به مرة أخرى يكمل عليه، فقال: "يا أمير المؤمنين؛ إن كنت تريد أن تقتلني فاقتلني قتلًا رحيمًا، وإن كنت تريد أن تشفيني فقد والله برأت" أي لو أنك تريد قتلي اقتلني وأرحني من هذه القصة، ولو أردت أن أُشفى من المرض الذي أنا فيه فالله قد صرفه عني.

فهمَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، فقال له الحُر: يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: {خُذِ العَفوَ وَأمُر بِالعُرفِ وَأَعرِض عَنِ الجاهِلينَ}[الأعراف:199]وإن هذا والله من الجاهلين"، كان يعرف ما سيحدث له، وهذا عمه فقال: "والله إن هذا لمن الجاهلين."

يقول ابن عباس رضي الله عنه: "والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه"، حين قال الرجل له الآية وقف، وتأمل هذه الجملة: "وكان وقافًا عند كتاب الله"، رضي الله عنه وأرضاه، كان وقافًا عند كتاب الله.

ربنا ﷻ رباهم على أعلى المراتب على الجهاد، قال الله ﷻ:{إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}[آل عمران:122]

قال جابر رضي الله عنه: "فِينَا نَزَلَتْ: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حارثَة وَبَنُو سَلَمة، وَمَا نحِب أَنَّا لَمْ تَنزلْ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}".

أختم بشيء أخير: أول شيء رباهم القرآن عليه ماذا كان؟ **على الإيمان**، ربى الإيمان في قلوبهم، ورباهم على العبادة، ورباهم على الأخلاق، ورباهم على العلم، صار القرآن هو قائدهم نحو التعلم؛ فأول آية {اقرأ} ترشدهم إلى هذا العلم، وأمرهم الله ﷻ؛ فقال لنبيه ﷺ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ}[محمد:19]، وقال الله ﷻ: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه:114].

لم يأمر الله تعالى النبي ﷺ من الازدياد في شيء إلا في هذا الموضع: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه:114].

أتعرفون ابن عباس أم لا؟ ابن عباس رضـــي الله تعالى عنهما ابن عم النبي ﷺ الذي دعا له قائلًا: (اللهم فقه في الدين، وعلمه التأويل).

كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه يجلسه مع أشياخ بدر في القصة المعروفة، لما تلى {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}[النصر:2] فعمر بن الخطاب عرضها على مشايخ بدر الذين هم الصحابة الكبار، فكان كل منهم يقول: "إن النبي ﷺ أُمر بالاستغفار" وما شابه.

فقال ابن عباس –وهذا أصل في باب يسمونه في التفسير بالتفسير الإشاري هذا الحديث أصل فيه– قال: "هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له"، {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}، والفتح أي فتح مكة فذاك علامة أجلك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[النصر:3].

فقال عمر بن الخطاب: "والله ما أعلم منها إلا ما تعلم".

في السنة التي حوصر فيها عثمان بن عفان بعث ابن عباس أميرًا على الحج، كان ابن عباس أمير الحج في زمان عثمان، يقول أبو وائل: "قرأ ابن عباسٍ سورة النور في موسم الحج في خطبة الموسم، وفسرها" فقلت: "لو سمعها الروم والدَّيْلَم لأسلموا"، لو سمعوا هذا الرجل وهو يفسر القرآن؛ لأسلموا من جمال تفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

أين العلم في حياة ابن عباس؟ العلم بالقرآن، أي شيء كان يمكنه أن يتعلم منه ما يعينه على فهم القرآن كان يتعلمه.

في مرة من المرات وهو يسير سمع أعرابيان يتلاحيان في بئر محفورة، والاثنان يختلفان مع بعضهما، فقال أحدهما: "أنا فطرتها" أي أنا فطرت هذه البئر، وقال الآخر: "بل أنا ابتدأتها"، ففهم أن معنى الفطر هو معنى الابتداء أي الإنشاء .. قال: "والله ما كنت أدري ما فاطر حتى سمعت أعرابيان يتلاحيان فقال أحدهما للآخر أنا فطرتها فعلمت قول الله عز وجل: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}"، فهم معنى فاطر السموات والأرض من موقف حدث معه.

واستحضار الصحابة للقرآن في المواقف كثير جدًا، كانوا يستحضرون القرآن في المواقف كثيرًا، لكن لا أحب أن أطيل عليكم بهذا.

نأخذ آخر قصـــة مع ابن عباس أيضًـــا، كان ابن عباس في يوم من الأيام في المســـجد الحرام فجاءه ابن الأزرق، ونافع بن الأزرق كان من الخوارج وله مسائل مع ابن عباس رضي الله تعالى عنه وأرضاه مشهورة.

فأقبل ابن الأزرق على ابن عباس يسأله حتى أمله وظهر من ابن عباس الضجر من كثرة أسئلته، إذ خرج عمر بن أبي ربيعة –وعمر بن أبي ربيعة شاعر من شعراء العرب– وكان إذ ذاك صغيرًا، هو شاعر ماجن باللغة المعاصرة، وكان عليه ثوبان مُوَردان أو ممصران، الممصر أي فيهما صفرة، وكان عمر بن أبي ربيعة جميل.

فأقبل عليه ابن عباس –حينما دخل عمر على ابن عباس– وترك نافع بن الأزرق، فقال' "له أنشـــدنا" يقول: "قل لنا شيئًا"، فأنشده قصيدته المشهورة التي يقول في أولها:

أم من آل نُعْم أنت غاد فمنكرُ

غداة غد أم رائحٌ فمُهجِّرُ

لحاجة نفس لم تقل في جوابها

فتبلغ عذرًا والمقولة تعذر

تهيم إلى نُعم فلا الشمل جامع ولا

الحبل موصول ولا القلب مُقصر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع

ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبر

حالته كانت حالة كان الله في عونه! ظل ينشـده هذه القصـيدة حتى أتى إلى آخرها، والقصـيدة ثمانون بيتًا، ونافع بن الأزرق الذي هو من الخوارج طبعًا يتنمر، فقال: يا ابن عباس إنا لنضـــرب إليك أكباد المطيّ، من أقاصـــي الأرض لنســـألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت .. فيخزى وأما بالعشي فيخسر

أي يقول: أتتركنا ونحن نسألك مثل هذه الأسئلة وتذهب لتسمع الشعر من واحد من مترفي قريش، فقال له ابن عباس: ليس هكذا قال أنت بالأساس لم تسمع جيدًا.

فقال: فكيف قال؟ قال:

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت .. فيَضحى وأما بالعشيّ فيخسر

-ماذا تعني يَضْحى؟ أي يعرق-.

قال: "ما أراك إلا قد حفظت الأبيات!"، هل حفظت القصيدة؟ فقال له: "نعم، ووالله ما سمعتها إلا الساعة، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتكها"، أي لو أردت أن أسمع لك القصيدة كلها أسمعها لك.

قال: "فإني أشاء"، قال: نعم سمعها لي، فأنشده القصيدة حتى جاء على آخرها، كل هذا وعمر بن أبي ربيعة مازال جالسًا، ثم أقبل على عمر وقال له أنشدنا، أكمل، فأنشده:

تشط غدًا دار جيراننا

فقال ابن عباس: "وللدار بعد غد أبعد"، فقال له عمر: "كذلك قلت أصلحك الله"، أي أنه أكمل له البيت، "هل سمعتها قبل ذلك؟" فقال: "لا ولكن كذلك..." المفترض الطبيعي أن هذا هو المناسب.

فبعد ذلك سأله نافع ابن الأزرق عن قول الله ﷻ: {أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى}[طه:119]، فقال له: أما سمعت قول الشاعر: رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت فيضحى

يقول: أنت لو كنت انتبهت إلى الأبيات لفهمت، فاستعان بهذا الشعر على فهم كلام الله ﷻ.

خلاصة الأمر أيها الكرام والذي أختم به أن هذا القرآن لابد أن يكون الحادي الأول لتربية نفسك وإصلاح قلبك، وأنك لو ابتعدت عن هذا القرآن فلن تجد صلاح الأعمال، لن تجد صلاح نفسك.

عندما يقبل الإنسان على كتاب الله ﷻ ليقرأه، وهذا أول شيء لابد أن تفعله، أول شيء تفعله إذا أردت أن تربي نفسك بالقرآن، وإذا أردت أن تحقق الاكتفاء بالقرآن، أول شيء عليك أن تكثر من تلاوة القرآن، وأن تحرص على سماعه.

الأمر الآخر أن تقف عند كل آية لتعرض نفسك عليها، لذلك ربنا يقول ﷻ: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ} هذا هو تمام التأثير، كيف يحدث التأثير {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد}[ق:37] هذا هو المؤثر.

أين المحل القابل للتأثر؟ القلب

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لذكرى} هذا المؤثر هو القرآن.

ما المحل الذي سيتأثر بالقرآن؟ {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ} والمراد بالقلب هنا أي القلب الحي العاقل، كما قال الله ﷻ:{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا}[يس:69-70] أي حي القلب.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} أي وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

{وَهُوَ شَهِيدٌ} شاهد القلب، حاضر القلب غير غائب عن هذا القرآن، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، وتوفر المحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر بهذا القرآن.

وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذينَ يَتلونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقوا مِمّا رَزَقناهُم سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرجونَ تِجارَةً لَن تَبورَ * لِيُوَفِّيَهُم أُجورَهُم وَيَزيدَهُم مِن فَضلِهِ إِنَّهُ غَفورٌ شَكور * وَالَّذي أَوحَينا إِلَيكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبيرٌ بَصير * ثُمَّ أَورَثنَا الكِتابَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفسِهِ وَمِنهُم مُقتَصِدٌ وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإِذنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبير * جَنّاتُ عَدنٍ يَدخُلونَها يُحَلَّونَ فيها مِن أَساوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤلُؤًا وَلِباسُهُم فيها حَريرٌ * وَقالُوا الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي أَذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفورٌ شَكورٌ * الَّذي أَحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِن فَضلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فيها لُغوبٌ * وَالَّذينَ كَفَروا لَهُم نارُ جَهَنَّمَ لا يُقضى عَلَيهِم فَيَموتوا وَلا يُخَفَّفُ عَنهُم مِن عَذابِها كَذلِكَ نَجزي كُلَّ كَفورٍ * وَهُم يَصطَرِخونَ فيها رَبَّنا أَخرِجنا نَعمَل صالِحًا غَيرَ الَّذي كُنّا نَعمَلُ أَوَلَم نُعَمِّركُم ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذيرُ} هذا القرآن من النذر {فَذوقوا فَما لِلظّالِمينَ مِن نَصير * إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيبِ السَّماواتِ وَالأَرضِ إِنَّهُ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ}[فاطر:29-38]

نسأل الله سبحانه وتعالى بجلاله وعظمته وكبريائه على خلقه أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء همومنا، وذهاب غمومنا وأحزاننا، اللهم ذكرنا منه ما نُسيّنا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

اللهم اغفر لنا هزلنا وجدنا، وخطأنا وعمدنا وكل ذلك عندنا.

وجزاكم الله خيرًا، وأحسن إليكم، وبارك الله فيكم، وصلى الله على نبينا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.